

التحليل السيميائي لـ«الناس فى بلادى» لصلاح عبدالصبور

* حسن مجيدى

** أسية فولادى

الملخص

السيمولوجيا (semiology) هو علم العلامات أو الاشارات أو الدلالات اللغوية أو الرمزية، سواء أكانت طبيعية أم اصطناعية. "السيميائية" اداة لإثراء القراءة لانها اعطت ادوات خصبة و غنية للقراءة، تمكن القارى من التوغل فى النسيج الداخلى أو فى البنية الجوانبية للنص. فى هذا المجال نريد التحليل السيميائى لقصيدة «الناس فى بلادى» لصلاح عبد الصبور لكى نتوغل فى انسجتها المختلفة و البنى الجوانبية لها؛ لذلك يجب علينا أن نستفيد من الآليات السيميائية للوصول الى هذه الغاية. الآليات السيميائية هى: البنية الدلالية، مستوى التلقى و البنية الجمالية. نجد فى هذه القصيدة من الوجهة الجمالية علاقات جميلة بين الكلمات و هذه العلاقات تعطيها الانسجام و الانتظام مثل التشاكل و التقاين و التناص الذى اقتبسها الشاعر عن ثلاثة نصوص غائبة و هى القرآن، «نهج البلاغة» و «نهج الفصاحة».

الكلمات الدلالية: السيمولوجيا، صلاح عبد الصبور، قصيدة «الناس فى بلادى»، التحليل السيميائى، قراءة النص.

* عضو هيئة التدريس بجامعة الحكيم السيزوارى (أستاذ مساعد).

** ماجستيرة فى اللغة العربية و آدابها، جامعة الحكيم السيزوارى

الكاتبة المسؤولة: أسية فولادى

المقدمة

إن الإشكالية التي تستوقفنا في مجال الدراسات النقدية المعاصرة، هي نقص الاجراءات أو التطبيق لكثير من القضايا النقدية، التي لا تتعلق بالخطاب الشعري فحسب بل تتعلق كذلك بالخطاب السردي؛ بحيث نجد تفاوتاً كبيراً بين التنظير و الاجراء. فهناك طرح غني و ثرى على مستوى التنظير يقابله اختزال كبير و تعميم واضح على مستوى الاجراء، بينما أن الاجراء أداة أو وسيلة أساسية و مهمة لتوضيح الكثير من القضايا النقدية، و نجد التحليل السيميائي للخطاب الادبي بعامة لا يخرج عن هذه الاشكالية المطروحة - التفاوت بين التنظير و الاجراء - على الرغم من أن السيميائية أو السيمولوجيا اعطت ادوات خصبة و غنية تمكن القارى من التوغل فى النسيج الداخلى أو فى البنية الجوانبية للنص (كيرزوئيل: ٢١٧).

"السيمولوجيا" هو علم العلامات أو الاشارات أو الدلالات اللغوية أو الرمزية، سواء أكانت طبيعية و لايتصرف الانسان فيها كصوت الحيوانات أو عناصر الطبيعة، أو الاصوات الدال على التوجع و الألم مثل آه، آى و... أم اصطناعية و يتوافق الانسان فى مدلوله و مقصوده مثل لغة الانسان أو علامات المرور.

إن المنظرين للاتجاه السيميائي بجانب نظرياتهم السيميائية و اثباتها، لم يلغوا الجانب الاجرائى بل اتخذوه متكأهم الاساسى فى عرض نظرياتهم الجديدة. فالسيميائية اداة لإثراء القراءة و هى نموذج انسب لتصور قراءة داخلية دقيقة لبنية النص و نسيجه، قراءة لا تتحد ميكانيزتها و استراتيجيتها إلا بتفكيك أو بتشريح بنية النص؛ فيصبح الاجراء الذى يعتمد على التفكيك و التشريح اساساً جوهرأ لمفهوم القراءة الداخلية (بشير محمودى: ١).

التفسير و التوضيح حول أى نص ادبى أو شعر، يحتاج الى تفسير العلامات أو الكلمات أو الاشارات فى ذلك النص أو الشعر. تتجلى العلامات فى المستويات المختلفة؛ المستوى الدلالى، المستوى التركيبى، المستوى الصوتى و الابقاعى. الآليات السيميائية هى البنية الدلالية، مستوى التلقى، و البنية الجمالية.

أ.البنية الدلالية: هذا المستوى يدرس و يعالج الكلمات و العلامات فى النص، على اساس الدلالات وبنى المختلفة كالبنية الإنفعالية و السياسية و الكدحية و الدينية و قوانين انتظام هذه البنى الدلالية.

ب.مستوى التلقى: يدرس هذا المستوى حول القراءات أو التلقيات المختلفة و التفاسير العديدة حول النص الادبى أو الشعر.

ج.البنية الدلالية: يعالج النص على اساس القوانين و العلاقات المختلفة، بين الكلمات مثل التشاكل و التقاين و التناص.

فى هذا المقال نريد التحليل السيميائى لقصيدة «الناس فى بلادى» للشاعر المعاصر صلاح عبدالصبور، كى نغور فى المستويات المختلفة لها. و عندنا أسئلة مختلفة حول هذه القصيدة؛ أهذه القصيدة لها الدلالة السياسية و الإجتماعية أم هى قصيدة تعبر عن الشعور و العواطف الفردية عند شاعرها؟ الدلالات الإنفعالية فى القصيدة قوية أم لا؟ قد إستطاع الشاعر أن يلقى المفاهيم و الدلالات التى عنده بشكل تام؟ من الممكن اتخاذ متلقيات مختلفة عن هذه القصيدة؟ ما هو سر الجمال لها؟ أو ما هى العلاقات المختلفة بين علاماتها التى تعطىها جمالاً؟ و...؛ و كل هذه الأسئلة نريد إجابتها عن طريق السيمولوجيا و آلياته. و نستفيد فى هذا المجال من الكتب المختلفة نحو كتاب «محاضرات فى سيمولوجيا» لمحمد الرغينى و كتاب «عصر البنيوية» لـإديث كيرزوثيل و «ديوان الشعر» لصلاح عبدالصبور.

من هو صلاح عبد الصبور؟

اسمه محمد صلاح الدين عبد الصبور يوسف الحواتكى الشهير بصلاح عبد الصبور، ولد فى مايو عام ١٩٣١ فى أسرة متوسطة الحال بمدينة «الزقايق» بمصر، و تلقى بها تعليمه حتى المرحلة الثانوية، ثم التحق بقسم اللغة العربية بكلية الآداب فى جامعة القاهرة عام ١٩٤٧ و تخرج فيه عام ١٩٥١ ليعمل بعض الوقت مدرساً للغة العربية فى احد المعاهد الثانوية، لكنه يضيق بالتدريس فيتركه و يتجه الى الصحافة ليعمل صحفياً فى «روز

اليوسف»، ثم يتدرج فى المناصب حتى يشغل قبيل وفاته منصب رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب (اسوار: ٥٤٧).

انه من رواد الشعر الحر فى الادب العربى و من المنظرين له و هو متأثر من الثقافة الغربية. كذلك صلاح هو من الشعراء النوادى فى الادب العربى، الذى له سهم عظيم فى التأليف المسرحى (شفيعى كدكنى: ٢٢٩).

توفى عبد/الصبور فى الثالث عشر من اغسطس عام ١٩٨١ اثر النوبة القلبية. المصادر التى يستخدمها صلاح فى الشعر الحر متنوع نحو شعر الصعاليك و الاشعار الحكمية و افكار الاكابر الصوفية كال/حلاج و بشر/الحافى. إنه يتقنع بهذه الشخصيات الصوفية و يتحدث عن افكاره و اعتقاداته على لسانهم. علاوة الى ذلك، إنه يستخدم المختارات من الاشعار الرمزية لفرنسا و المانيا نحو اشعار بودليير و ريلكه كاستخدامه الاشعار الفلسفية الإنجليزية مثل اشعار جون دون وبييتس، كيتس و ت.س. اليوت.

ترك صلاح عبد/الصبور العديد من الدواوين و المسرحيات الشعرية و الآثار النثرية و هى:

١. التأليفات الشعرية: مثل ديوان «الناس فى بلادى» الذى يملأ من المصطلحات العامة الثنائية الكوميديا و الدرامية، و يمتزج الشعر السياسى و الفلسفى فى موضع اجتماعى و انتقادى. كذلك يمكن أن نشير الى ديوان «أقول لكم»، ديوان «أحلام الفارس القديم» و «تأملات فى زمن جريح».

٢. التأليفات المسرحية: «الأميرة تنتظر»، «مأساة الحلاج»، «بعد أن يموت الملك»، «مسافر ليل»، «ليلى و مجنون».

٣. التأليفات النثرية: «حياتى فى الشعر»، «اصوات العصر»، «قراءة جديدة لشعرنا القديم»، «ماذا يبقى منهم التاريخ» و

آثاره النثرية و الشعرية لها تأثير عظيم فى الجيل المتعدد من الشعراء، فى مصر و سائر البلدان العربية. كذلك آثاره يجذب المحققين و لا نجد أى دراسة نقدية فى مجال الشعر

الحر كى لا يشير الى اشعاره و ديوانه. إنه يبرز حزنه و ألمه فى الشعر و يتقنع برموز تاريخية و صوفية و يستلهم من الحوادث الواقعية (اسوار: ٥٤٧).

التحليل السيميائي فى قراءة قصيدة «الناس فى بلادى»

نحن نحتاج الى الآليات السيميائية للتحليل السيميائي و هى:

١. البنية الدلالية

إن ربط مفهوم البنية بالدلالية يتم من خلال الكشف، عن جملة الدلالات السياسية و التاريخية و الثقافية و الدينية التى عملت عملها فى النص، على شكل بُنى تتداخل بعضها ببعض و تنتظم ثنائية. الشاعر يظهر هذه الثنائية من خلال الالفاظ، لذلك يمكن لنا الوصول الى البنية الدلالية لقصيدة بمعالجة الالفاظ و العلامات.

نحن نجد فى قصيدة «الناس فى بلادى» ثنائية الايمان و اللا ايمان. الشاعر يؤمن بالله مرةً و يشير الى عظمة الله و قدرته و نفوذ أمره، و مرةً أخرى له نظرة سلبية و يرى الله القاسى و الظالم. ندرس القصيدة من البنى الدلالية المختلفة للتمييز بين مواضيع الايمان و اللا ايمان عند الشاعر.

أ. البنية الانفعالية

صالح يتحدث عن حزنه فى هذه القصيدة؛ الظروف الصعبة و السيئة لمجتمع مصر و الفقر و الجوع تنقص عن ايمان الناس بالله بحيث يقتلون بعضهم بعضاً و يسرقون و يشربون الخمر:

الناسُ فى بلادى جارحون كالصقور...
و يقتلون، يسرقون، يشربون، يجشأون

(عبد الصبور: ٥٣)

و بعض الأحيان يجتمعون حول العم مصطفى و يطأطؤون رؤوسهم، و يسكتون من شدة الألم و يصغون الى حكاياته و تجربياته. هذه الحكايات تحكى لهم من العدم، و تثير فى نفوسهم الحزن و فى عيونهم الجفاء بسبب شعورهم أنهم لا يساوون شيئاً و حياتهم عدم لا قيمة لها؛ لذلك سيكون بصوت عال:

و عندَ بابِ قرىتى يجلسُ عمى مُصطفى...
و حولَه الرجالُ واجمون
يحكى لهم ... تجرِبَةُ الحياةِ
حكايةٌ تثير فى النفوسِ لوعةَ العدم
و تجعلُ الرجالَ ينشجون

(عبدالصبور: ٥٣)

الناس فى بلاد الشاعر(مصر) محزونون بقدر ما يحدقون فى اللاشىء، و يغرقون فى الرعب و السكون و الصمت و لا يرون للحياة أية غاية و يعدّونها العدم:

يحدّقون فى السُّكون
فى لَجَّةِ الرُّعبِ العميقِ و الفراغِ و السكونِ
ما غايةُ الانسانِ من أتاعبه؟ ما غايةُ الحياة؟
فى هذا المقطع الشعري، صلاح محزون شديداً بحيث ييأس من الحياة و يعدّها دون القيمة و الغاية و يلوم الله تعالى لأجلها أو لعبثية الحياة.

ب.البنية السياسية

هذه البنية تجعلنا أن نتجاوز عن المعنى القريب و المألوف للحزن. حزن الشاعر فى هذه القصيدة ليس حزناً فردياً و شخصياً بل يبدّل الى حزن اجتماعى و سياسى. صلاح يقلق لمصيرة جميع الناس فى بلاده. فى المجتمع الذى يعيش الشاعر، فيه الفوارق الطبقيّة؛ بحيث عدة من الناس لهم ثروة كثيرة و يبنون القلاع و الإمارات و عندهم غرفات كثيرة من الذهب و النقود:

بَنَى فِلاَنٌ وَّ اعْتَلَى شِيدَ القِلاَعِ
و اربعونَ غِرفَةً قد مُلِئَتْ بِالذَّهَبِ اللَّماَعِ
لكن قِسمَ آخَرَ فى نِفسِ المِجتمَعِ تَعِيشُ فى فِقرٍ شَدِيدٍ بِحِثِّ يَخْرُجُونَ عَنِ الدِّينِ
الْحَنِيفِ، و يَرْتَكِبُونَ الإِثْمَ و يَقتُلُونَ و يَسْرِقُونَ لَكى يَنجُونَ بِأَنفُسِهِم عَنِ هَذِهِ الظُّروفِ
الصَّعْبَةِ، بَينما لو يَجِدُونَ نِقودَ قَلِيلَةٍ، يَفْرَحُونَ و يَتَرَكُونَ الإِثْمَ و يَرجِعُونَ الى اِيمانِهِم:

الناسُ فى بِلادى جَارِحُونَ كَالصَّقُورِ
و يَقتُلُونَ، يَسْرِقُونَ، يَشْرِبُونَ، يَجشَّأُونَ
لِكَثْمِهِم بِشَرِّ
و طَيِّبُونَ حِينَ يَمْلِكُونَ قَبضَتى نُقودِ
و مُؤمِنُونَ بِالْقَدَرِ

ج. البنية الكدحية

هذه البنية تدرس حول العلامات التي لها مفهوم العمل و السعى. الفقر و المجاعة و الظروف الصعبة و السيئة لمجتمع مصر أدّى الى أن يرى الشاعر الطبقة المحرومة من الناس، الذين يجرحون بعضهم بعضاً كالصقر و كلامهم قاس و مهين، و لا يحترمون الآخرين من شدة الجوع؛ غناؤهم عبارة عن اصوات ترتعش و ترتجف كاهتزاز اوراق قمة الشجر عندما تهب الريح فى الشتاء و هذا يدل على ضعفهم، و كذلك ضحكهم يبين شدة الألم و العذاب و هو كصوت الحطب فى النار المشتعلة و كأن خطاهم تريد أن تغوص فى التراب و ذلك من شدة التعب و الألم و الضعف:

الناسُ فى بِلادى جَارِحُونَ كَالصَّقُورِ
غِناؤُهُم كَرَجْفَةِ الشِّتاءِ فى دُؤابَةِ الشَّجَرِ
و ضَحِكُهُم يَبْزُ كَاللَّهيبِ فى الحُطْبِ
خُطاهِمُو تُريدُ أن تَسُوخَ فى التُّرابِ

بناء على ذلك، أنهم ينجزون أى عمل للخلاص عن هذه الظروف الصعبة، سواءً كانت هذه الاعمال شرعية ام غيرها:

يقتلون، يسرقون، يشربون، يجشأون

بجانب هذه الطبقة المحرومة هناك طبقة أخرى تعيش فى الغنى و الرفاهية، و تزيد الى ثرواته يوماً بعد يوم و تبني القلاع، لكن جهودهم و اعمالهم غير مشروع و دخلهم دنس؛ لذلك لا يقربهم العزرائيل ساعة الموت خوفاً أن يتدنس بل يمدّ عصاه و يقبض روحهم:

و مدّ عزرائيلُ عصاه

بِسِرِّ حَرْفَى «كُن» بِسِرِّ لَفْظِ «كَان»

و فى الجحيمِ دَحْرَجَتْ رُوحُ فُلَانٍ

و قد شبه الشاعر "ملك الموت" بجابى الضرائب، الذى يقبض روح الإنسان الغنى و تدرج روحه الى الجحيم.

العم مصطفى يمثل الجيل القديم و الإنسان الفقير، الذى لم يبني قلاعاً بل عنده غرفة

من اللبن:

لم يبتنِ القِلاعَ

كان كوخُه مِنَ اللَّبَنِ

لكن حفيده (خليل) يمثل الجيل الجديد، جيل الثورة و التحدى الذى يجاهد لتحسين

الايوضاع بمجتمع مصر:

عند باب القبرِ قام صاحبى خليل

حفيدُ عمّى مصطفى

و حينَ مدّ للسَّماءِ زنده المفترول

ماجت على عينيه نظرة احتقار

د.البنية الدينية

لهذه القصيدة طابع ديني، حيث اقتبس الشاعر بعض المصطلحات الدينية مثل «إله، المصطفى، كُن، القدر، القضاء و عزرائيل». كذلك تكرر «يا أيها الإله» يبرز تأثير الدين فى النفس البشرية.

الطبقة المحرومة للمجتمع يرجعون الى ايمانهم بالقضاء و القدر، حينما يكسبون قليلاً من النقود:

و طيبون حين يملكون قبضتى نُقود
و مؤمنون بِالْقَدَرِ

عمُّ الشاعر يسمّى مصطفى و هو يحب النبي(ص):

و عند بابِ قريتى يجلسُ عمّى (مصطفى)

و هو يحبُّ المصطفى

يضع صلاح كلمة مصطفى بين قوسين لكى يرمز لأبناء الشعب المتدين و المؤمن. علاوة الى ذلك تختلف وجهة نظر الشاعر حول الله تعالى؛ إنه يعظم الله من وجهة و يشير الى مظاهر هذه العظمة فى الطبيعة. الشمس فى النهار و القمر فى الليل و الجبال الراسيات كلهم رمز من عظمة الله و الله قادر على كل شىء و أمره أمر:

الشَّمْسُ مُجْتَلَاك...

و الهلالُ مَفْرَقُ الْجَبِينِ

و هذه الجبالُ الراسياتُ عرشُك المكين

و أنتَ نافِذُ القِضاءِ... أيها الإله!

و يلوم الله تعالى على عبثية الحياة من جهة أخرى، و لا يجد للحياة هدفاً و قيمةً و يعد الله القاسى؛ لأنه يقبض نفوس جميع الناس، فقيراً ام غنياً:

ما غاية الإنسان من أتعابه؟ ما غاية الحياة؟

يا أيها الإله كم أنت قاسٍ موحشٍ يا أيها الإله

كذلك يظهر الطابع الديني للقصيدة في موت العم مصطفى و موت الإنسان الغنى، الذى ثروته غير مشروع. صلاح يصور موت عمه كشخص فقير؛ إنه يجعل فى التراب و وُسْد بلطف لأنه كان مؤمناً بسيطاً متواضعاً. أيضاً سار خلف نعشه من كانوا مؤمنين لكن نسوا ذكر الله و ملك الموت لشدة الجوع:

قد مات عمى مصطفى

و وسَّدوه فى التُّراب

و سار خلف نعشه القديم

من يملكون مثله جلاب كَتَّان قديم

لم يذكروا الإله أو عزرائيل أو حروف كان

فالعامُ عامُ جوع

لكن فى طرف آخر، روح الغنى تدحرج فى الجحيم بسرّ حرفى «كن» أو «كان»، و هنا يوجد تعظيم للخالق و تحقير للمخلوق:

و مدَّ عزرائيلُ عصاه

بسِرِّ حرفى «كُن» بسِرِّ لفظ «كان»

و فى الجحيم دَحْرَجَتْ رُوحُ فلان

الفاظ "عزرائيل"، "كن" و "الجحيم" تدلّ على عنصر الدين فى القصيدة.

هـ قوانين انتظامبنى الدلالية

إن الكشف عن قوانين انتظامبنى الدلالية فى النص، هو الكشف عن العلاقات التى تتحكم فى هذهبنى و ترتبط بعضهم ببعض. أية بنىة دلالية سواء أكانت انفعالية ام سياسية ام كدحية ام دينية، لها علاقة مع سائربنى الدلالية.

القانون الاول الذى يرتبط بينبنى الدلالية هو قانون الصراع. فى القصيدة صراع بينبنى الإنفعالية وبنى السياسية؛ الظروف السياسية السيئة و الحرمان الإجتماعى تسبب حزناً و يأساً شديداً من جانب الشاعر بحيث لا يجد للحياة غاية و يلوم الله تعالى لأجله:

ما غاية الإنسان من أتعابه؟ ما غاية الحياة؟
و اما القانون الثانى الذى نجده فى النص و يرتبط البنى الدلالية بعضهم ببعض، فهو
قانون التأثير و التأثير أو قانون العلة و المعلول. إن البنية السياسية علة و البنية الدينية
معلولها؛ القهر السياسى ينقص عن ايمان الله، فالفقراء يرتكبون الإثم كى ينجون أنفسهم
عن هذه الظروف السيئة:

و يقتلون، يسرقون، يشربون، يجشأون
و الاغنياء لا يقبلون موتهم، و يعدون الله قاسياً و ظالماً و موحشاً:
يا أيها الإله، كم أنت قاسٍ موحشٍ يا أيها الإله

٢. مستوى التلقى

إنّ كل ما يقال حول نص من النصوص هو فى حد ذاته تلقى أو قراءة، اى القارى أو
المتلقى له تلقى خاص من النص أو الشعر على أساس علمه و ثقافته و احواله النفسية. إن
كان الإختلاف بين المبدع أو المرسل أو الشاعر و بين القارى، أكان هذا الإختلاف مكانى
أم زمانى أم ثقافى، لا ينتقل المعنى من المرسل الى المرسل إليه بشكل كامل و تختلف
القراءات. لكن إن كان بينهما اتحاد ينتقل المعنى بشكل تام و لا يمكن للقارى أن يكون
عنده قراءات مختلفة.

احدى من ميزات الأدب و الأثر الأدبى هى أن يعرض الأديب المعنى، التى عنده عرضاً
مبهماً و غير مباشرة كى يتلقى القارى قراءات مختلفة، و المعنى تحيله الى جملة من
الإحتمالات فى التفسير أو التأويل. هذا الأمر يجذب المتلقى و تدفعه الى الكشف عنها.
صلاح يستفيد من هذا الإبهام و هناك فى قصيدته دلالات تفرض ذاتها على مستوى
التلقى، و تتداعى فى ذهن المتلقى خلفية. قصيدة «الناس فى بلادى» تعرض تقسيماً من
الطبقات الإجتماعية فى مجتمع مصر. عدة من الناس يعيشون فى فقر شديد و الجوع، و
طبقة أخرى فى الغنى و الرفاهية و الثروة التى يكتسبونها غير شرعياً. أما فى النهاية كل
الناس يموت، فقيراً أو غنياً. الشاعر يضع كلمة فلان بين القوسين للسخرية من الأغنياء و

الذين بنوا القصور لكنهم ماتوا فى النهاية و ارواحهم ستوضع فى جهنم و لم ينفعهم مالهم ولم يمنع الموت عنهم. فى احدى الأمسيات الهادئة جاء ملك الموت يحمل دفترأ لأسماء من يريد قبض روحهم، و الإسم الأول كان ذلك «الفلان» الغنى و ملك الموت يقبض روحه:

بَنَى «فلان» و اعتلى و شيد القلاع
و اربعونَ عُرفَةً قد مُلئت بالذهبِ اللّماع
و فى مساءٍ واهينِ الأصداءِ جاءه عزيريل
يحملُ بين إصبعيه دفترأ صغير
و أوّلُ إسمٍ فيه ذلك «الفلان»
و مدّ عزرييلُ عصاه
بسِرِّ حرفى «كُن» بسِرِّ لفظ «كان»
و فى الجحيمِ دحرجت روحُ فلان

هذا النوع من التقسيم عند صلاح عبد/الصبور تتداعى قصة قارون فى أذهان المتلقين. قارون من الأغنياء فى بنى إسرائيل و من المشاورين و اصحاب فرعون، و المخالفين و المنكرين لنبوّة موسى(ع). قصة ثروته الكثيرة و القبيحة مطروحة فى الأدبين الفارسى و العربى، بينما يعيش حوله الناس الذين يعانون من الفقر الشديد و يتمنون اموال قارون. لكن ثروته لم يمنع الموت عنه و يدفن مع ثروته و قصوره فى التراب(جوادى أملى:٤٧).

الله تعالى يذكر قصة قارون فى كتابه الكريم حيث يقول:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مَوْسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٩٠﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْفِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ

عظيم ﴿١﴾ وقال الذين أوثوا العلم ويلكم ثواب الدنيا خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها
ألا الصابرون ﴿٢﴾ فَحَسَنَّا بِهِ وَبَدَارُهُ الْأَرْضُ فَمَا كَانَ مِنْ فِتْنَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنْ
الْمُتَصَرِّينَ ﴿٣﴾ (القصص/٧٦-٨١)

علاوة الى ذلك، قصة قارون في القرآن و مصيرة الأغنياء، فى قصيدة «الناس فى
بلادى» تتداعى آية من الذكر الحكيم حيث يقول الله تعالى:
﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الانباء/٣٥)

بمعنى أن جميع الناس يموتون و ثروة الأغنياء لم تدفع الموت عنهم، لذلك يعد الله
تعالى قاسياً و موحشاً:
يا أيها الإله، كم أنت قاسٍ موحشٍ يا أيها الإله

٣. البنية الجمالية

يطلق بعض الباحثين على البنية الجمالية فى تحليل النص الأدبى «المستوى
المحايد»، كما يذهب الى ذلك مولينو (*Molino*) و هو من اللغويين الشهير فى تحديده
لمستويات التحليل السيميائى (المستوى الشعرى، المستوى المحايد، المستوى الحسى)؛ و
هو مستوى يتفق عليه الباحثون كلهم و إن كان يرد لدى بعضهم بتسميات مختلفة. فهو
يرد عند بيرس (*Peirce*) و هو لغوى آخر بمفهوم «حقل التركيب المنطقى» الذى يعنى
بالعلاقات بين العلامات فى النص، و بتأويل هذه العلامات من حيث دلالاتها و احياءاتها.
أما عند مولينو فيعنى عنده «الشكل الذى انجز فيه النص» (الرجينى: ٥١).
و إذا جئنا للبحث عن نظام العلاقات بين العلامات فى النص، فنجد بعض المفاهيم أو
المصطلحات السيميائية تحقق لنا ذلك النظام أو ذلك القانون، الذى يحكم علاقة
العلامات بعضها ببعض و لعل من المصطلحات المجسدة لذلك نجد مصطلح «التشاكل» و
مصطلح «التقايين» و أخيراً مصطلح «التناس».

أ. التشاكل (l.sotopie)

قد يحقق لنا مصطلح التشاكل مبدأ العلاقات أو مبدأ التركيب الذي اعتمده بيرس، و الحقه بوصف المنطق و لعل المنطق هنا يحيلنا الى شيء من التعاليق، أو الربط الدلالي بين العلامات كمنطق المشابهة أو التجانس الذين نجدهما فى التراكيب أو الصيغ المتشاكله من حيث الأساليب و التعابير (الشكل)، أو من حيث المعنى أو الدلالة (المضمون) فيصبح التجانس فى حد ذاته قانوناً أو نظاماً للعلاقات سواء كان سلبياً أو دلالياً.

فى قصيدة «الناس فى بلادى» يستفيد الشاعر من التجانس أو التشاكل فى الكلمات و التراكيب، لعرض الأفكار و الأحاسيس المتشابهة كالحزن و اليأس، لكن إنه يستفيد من التشاكل بأشكال مختلفة:

١. التشاكل النحوى: حيث نجد تشاكلاً تاماً بين السطرين من جهة التركيب فهنا تشاكل نحوى. صلاح حينما يريد أن يظهر غاية حزنه و يأسه يقول:
ما غاية الإنسان من أتعايه؟ ما غاية الحياة؟
تركيب الجملتين يكون كما يلي: الخبر المقدم + المبتدأ المؤخر (المضاف) + المضاف اليه؛ ففي هذين السطرين تشاكل نحوى.

٢. التشاكل الصرفى: يعنى التشابه و التجانس من حيث عدد الأصوات و مخارجها (حركة، سكون، مد)
صلاح حينما يريد أن يصور الظروف الصعبة للفقراء يقول:
و يقتلون، يسرقون، يشربون، يجشأون
فى هذه الأفعال ترتيب الأصوات و الحركات و السكون متشابهة، و تشكل تشاكلاً صرفياً.

٣. التشاكل الصوتى و الايقاعى: من التشاكل الصرفى للكلمات و التراكيب ينتج التشاكل الايقاعى.

٤.التشاكل الدلالى: اية كلمة لها معنى اصلى و دلالات فرعية؛ بعض الأحيان يغلب المعنى الفرعى على المعنى الاصلى و تبدل الكلمة الى أسطورة. العم مصطفى فى شعر صلاح يمثل شخصاً فقيراً مؤمناً بالله و بعد الموت وسدوه فى التراب:

قد مات عمى مصطفى
و سدوه فى التراب

«و سدوه فى التراب» هى الجملة التى تخرج عن المعنى الاصلى و يستفيد بمعنى ايجابى. وسادة التراب يمثل الفقر و لها معنى و دلالة سلبية، لكن هنا يستخدمها الشاعر فى دلالة ايجابية. بعد موت العم مصطفى له وسادة ولو من التراب و هو يتكأ عليه بسبب ايمانه لكن الغنى الذى يجمع ثروته من طرق غير مشروعة، يموت و روحه ستوضع فى الجحيم:

و مدّ عزربيلُ عصاه
بسّرٍ حرفى «كن» بسّرٍ لفظ «كان»
و فى الجحيم دحرجت روحُ فلان

علاوة على ذلك، نرى نوعين آخرين من التشاكل التى يمكن تقسيمها الى القسمين:

١.التشاكل البسيط: و هو التشاكل التام بين الجملتين نحوياً و صرفياً و ايقاعياً و حتى دلالياً، كقول صلاح فى هذا السطر:

ما غاية الإنسان؟ ما غاية الحياة؟

٢.التشاكل المركب: فيتم بتجانس الوحدات عمودياً و أفقياً فى الوقت نفسه. و فى النظرة الاولى ليس بينهما مشابهة لكن الدراسة المتأنية و التحليل العميق، يظهر الخيط الرفيع الذى يجمعها. صلاح يصور الفقراء الذين يجتمعون حول العم مصطفى:

وحولهُ الرّجالُ واجمون
و تجعلُ الرّجالَ ينشجون
و يطرقون
يحدّقون فى السّكون

بين هذه السطور تشاكل مركب لأن الفاظ «واجمون، ينشجون، يطرقون، يحدقون» كلها تدل على الحزن الشديد و الضعف.

ب.التقايين

الآيقون يدل على شىء يجمعه الى شىء آخر علاقة المتماثلة، و لعل التصور الوحيد الذى يمكن أن نستثمره فى الدراسة السيمولوجية للأدب انطلاقاً من مفهوم الآيقون هو تصور لمقولة الحضور و الغياب، حيث تصبح كل وحدة فى النص بمثابة الآيقون يرتبط بدلالة غائبة، تفسح مجالاً واسعاً أمام تفسير النص و تأويله. الآيقونات تشكل عن طريق الحواس الخمسة؛ اى الشاعر يستمد من حواسه الخمسة و يصور احساسه و عواطفه و يعمقها بوسيلة هذه الحواس. الآيقونات التى يستفيد منها صلاح هى:

١.الآيقونة البصرية

الوصف نوعان: وصف الشىء أو وصف ما جرى محايداً و بشكل خبرى و تقريرى، و الوصف الذى يتصرف الشاعر فيه عن طريق احساسه و نظرياته. الآيقونة البصرية تتعلق أو تدل على صيغة اخبارية كتوصيف الشاعر عن اجتماع الناس حول العم مصطفى و الإصغاء الى حكاياته:

و عند باب قرىتى يجلسُ عمى مُصطفى
و هو يجِبُّ المصطفى
و هو يقضى ساعةً بينَ الأصيل و المساء
و حوله الرجالُ واجمون...
و تجعلُ الرجالُ ينشجون
و يطرقون
يحدقون فى السكون

الشاعر يستمد من الأيقونات البصرية مثل «يجلس، واجمون، ينشجون، يطرقون، يحدقون» لتوصيف الظروف الصعبة في مصر و حزن الناس لاجلها، كى يجسم الصور البديعة فى اذهان المتلقين.

٢. الأيقونة السمعية

الصوت مملوء من الأحاسيس المبهمة و العميقة. اللفظ هو الصوت أو رمز للصوت الذى يكتب؛ إن يستفيد الشاعر من الصوت فى وصفه، يصور صوراً ذا أبعاد مختلفة. الاصوات التى يسمعا صلاح، كلها اصوات غير مطلوبة و تصمُّ الأذان. غناء الفقراء بارد و غير مرغوب فيه كصوت الريح الشتائى بين اوراق الأشجار. هذا التشبيه يدل على ضعفهم، كذلك ضحكهم كصوت الحطب فى النار المشتعلة:

غناؤهم كرجفة الشتاء فى ذؤابة الشجر
و ضحكهم يئز كاللهيب فى الحطب

كذلك الصوت الآخر الذى لا يرغب الشاعر فيه هو صوت الشبع بعد شرب المشروبات:
يشربون، يجشأون

هكذا يسمع صلاح صوت البكاء من جانب الفقراء، الذين يجتمعون حول العم مصطفى
و يبكون بصوت عال:

و تجعل الرجال ينشجون

لكن بجانب جميع هذه الأصوات، يتكلم الشاعر عن السكون و الصمت الذى ينتج من شدة الألم و الحزن و الجوع الحاكم بين الناس فى بلاده مصر، و هذا الألم و الحزن يدفعهم الى الصمت:

و حوله الرجال واجمون...

و يطرقون

يحدقون فى السكون

فى لجة الرعب العميق و الفراغ و السكون

الفاظ «واجمون، الفراغ، السكون» تدلّ على السكوت، لكن هذا السكوت و الصمت ليس
بمعنى الرضا كما يقول صلاح في قصيدته الأخرى «الحزن»:
و الصمّتُ لا يعنى الرضاً

(عبدالصبور: ٣٨)

٣. الآيقونة الذوقية

الناس فى مجتمع مصر يعيشون فى فقر شديد، لذلك يعملون اى عمل لكى ينجون
انفسهم من تلك الظروف الصعبة. هكذا كل شىء قد خلا من كل ذوق عنهم فيميلون الى
شرب الخمر كى ينسوا الطعم المر للحياة. صلاح يجسم هذه الصورة فى ذهن المتلقى
بلفظ «يشربون»:

يقتلون، يسرقون، يشربون، يجشأون

٤. الآيقونة اللونية

هذه الآيقونة تتعلق بالألوان، بمعنى أن الشاعر يستمد من الألوان المختلفة كى يعطى
صوره عمقاً و بعداً. صلاح يستفيد من الألوان الفاتحة و الالفاظ الدالة على النور، حينما
يصور عظمة الله تعالى:

يا ايها الإله

الشمسُ مُجتلاك، و الهلالُ مَفرقُ الجبين

لكن حينما يريد أن يصور صورة غير مطلوبة، يستمد من اللون الأسود و الألفاظ الدالة
عليها؛ العم مصطفى يجلس عند باب القرية مساءً و يجمع الفقراء حوله:

و عند بابِ قريتي يجلسُ عميُ مصطفى

و هو يقضى ساعةً بين الأصيلِ و المساء

و حوله الرّجالُ واجمون

كذلك العزرائيل يقبض روح الغنى فى المساء. يستمد الشاعر من لفظ «مساء» كى يجسم ظروفاً غير مطلوبة، ثم يأخذ اللون الأسود منها و يصورها شاحب اللون و هذا الأمر يسبب عمق صورته:

و فى مساءٍ واهنِ الأصداءِ جاءه عزريل
يحملُ بين إصبعيه دفتراً صغِير
و أوَّلُ إسم فيه ذلك الفُلان

ج.التناس

"التناس" يعنى تداخل النصوص بعضها ببعض، الى حد أنها تكون فُسيفساء من النصوص. فنجد فى النص الواحد امتصاصاً لجملة من النصوص الغائبة. التناس أو تداخل النصوص يشبه الى حد بعيد نقل أو زرع الأنسجة فى مجال علم الأحياء أو البيولوجيا، حيث يشترط التوافق أو التجانس بين الجسمين، من حيث الخصائص و الميزات التى تسمح للجسم المستقبل بتقبل العناصر الدخيلة، الأمر نفسه فى امتصاص النص الحاضر للنص الغائب (بشير محمودى: ١١). هذا التجانس نجده فى قصيدة «الناس فى بلادى» بنوعين اثنين هما:

١.التجانس الدلالي: اننا نجد ثلاثة نصوص غائبة فى هذه القصيدة:

أ.القرآن الكريم: صلاح حينما يريد أن يصور عظمة الله تعالى يستفيد من معانى القرآن؛ إنه يذكر آيات الله فى العالم و يشير الى الشمس و القمر و الجبال، ثم يسمى الله نافذ القضاء:

الشمسُ مُجتلاك و الهلالُ مَفْرَقُ الجبين
و هذه الجبالُ الراسيات عرشك المكين
و أنت نافذُ القضاء... ايها الإله!

هذه الآيات نفس الآيات التى يشير اليها الله فى القرآن كى يصور عظمته و جلاله و نفوذ أمره، حيث يقول:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ... وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ
أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ فَتُبَارِكُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف/٥٤)

كذلك يقول الله تعالى في سورة أخرى:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء/٣٣)

المعنى الأخرى التي يمتصها صلاح من الذكر الحكيم هو «شق القمر»:

الهِلَالُ مَفْرَقُ الْجَبِينِ

هذا المعنى يشير إليه الله تعالى في القرآن حيث يقول:

﴿إِفْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (القمر/١)

ب. نهج البلاغة: الشاعر يعتقد أن الفقر و الجوع يسبب الإثم و الفساد عند الناس في
بلاده، لكن حين يملكون نقوداً قليلة يرجعون الى ايمانهم و يتركون الإثم و المعصية:

الناسُ في بلادِي جارحُونَ كالصَّقُورِ...

و يقتلون، يسرقون، يشربون، يجشأون

لكنهم بشرٌ

و طيبون حين يملكون قبضتي نُقُود

هذا الفساد و الإنحراف عن الدين بسبب الفقر، نفس المعنى الذي يشير إليه الإمام

على (ع) في حكمه: «فإن الفقرَ منقصةٌ للدين، مدهشةٌ للعقل، داعيةٌ للمقت» (الإمام على (ع): ٤٠٤).

ج. نهج الفصاحة: النبي الأكرم (ص) يرى أن الفقر يسبب الكفر عند الإنسان: «كاد الفقر أن

يكون كفراً» (النبي الأكرم، ١٣٨٥: ٥١٧). هذا المعنى يشبه المعنى الذي ينظمه صلاح و

يشار إليه في الفقرة الأخيرة.

٢. التجانس اللفظي: حينما يريد صلاح أن يصور موت الغنى المفسد، يستفيد من لفظ

«كن» الذي يقتبسه من القرآن. عزرائيل يقبض روح الغنى بلفظ «كن» و يذهب بروحه

الى جهنم:

و مَدَّ عَزْرَائِيلُ عَصَاهُ
بِسِيرٍ حَرْفِيٍّ «كُن» بِسِيرٍ لَفْظٍ «كَان»
و فِي الْجَحِيمِ دَحْرَجَتْ رُوحُ فُلَانٍ
قَدْ يَأْتِي هَذَا اللَّفْظُ فِي الْقُرْآنِ، حَيْثُ يَقُولُ:
«بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (البقرة/١١٧)

لكن هناك فرقان اساسيان بين إستخدام هذا اللفظ في القرآن و فى قصيدة صلاح عبدالصبور:
الاول: يأتى هذا اللفظ فى القرآن من جانب الله تعالى، لكن فى قصيدة«الناس فى بلادى»، جاء من جانب عزرائيل.
الثانى: يستخدم لفظ «كن» فى القرآن للكون، لكن فى قصيدة صلاح جاء لعدم الكون.

النتيجة

السيمولوجيا هو علم العلامات أو الإشارات، و السيميائية اداة لإثراء القراءة؛ لانها اعطت ادوات خصبة و غنية للقراءة تمكن القارى من التوغل فى النسيج الداخلى أو فى البنية الجوانبية للنص. التحليل السيميائى لقصيدة «الناس فى بلادى» يمكننا أن نقرب الى علاماتها و رموزها اكثر و اكثر. بمعالجة هذه القصيدة فى البنى الدلالية المختلفة علمنا أن الشاعر يعانى من الظروف الصعبة لمجتمع مصر، و هو محزون جداً بحيث يعد الحياة عبثاً و يشكو الى الله تعالى لاجلها.

هذه القصيدة لها اسلوب قصصى و تشبه قصة قارون فى القرآن الحكيم؛ إذ إن القرآن و هذه القصيدة كلهما يلقيان هذه المعنى بأن جميع الناس يموتون، فقيراً أو غنياً، و ثروة الأغنياء لم تدفع الموت عنهم؛ لذلك يعد ثروة الأغنياء المفسدين دون قيمة.
حينما ننظر الى القصيدة من وجهة جمالية، نجد فيها تشاكلاً بين علاماتها كالتحوية و الصرفية و الايقاعية و الدلالية التى تعطى لها جمالاً كثيراً. علاوة على ذلك، الأيقونة

البصرية و السمعية و الذوقية و اللونية التي يستفيدها الشاعر، تعطى قصيدته عمقاً و يمنح صورته بُعداً. كذلك لهذه القصيدة التناص الدلالية و اللفظية التي إقتبسها صلاح من القرآن و نهج البلاغة و نهج الفصاحة و هذا التناص يعطى قصيدته صبغة دينية.

المصادر و المراجع

القرآن الكريم.

نهج البلاغة.

نهج الفصاحة.

اسوار، موسى. ١٣٨١هـ.ش. از سرود باران تا مزامير گل سرخ. الطبعة ١. طهران: نشر سخن.

جوادى آملی، عبد الله. ١٣٤٣هـ.ش. تفسير موضوعى قرآن. طهران: دار النشر و الثقافة رجاء.

الرغيني، محمد. ١٩٨٧م. محاضرات فى سيمولوجيا. الطبعة ١. المغرب: دار الثقافة للنشر و التوزيع.

شفيعى كدكنى، محمدرضا. ١٣٨٠هـ.ش. شعر معاصر عرب. طبع ١. طهران: نشر سخن.

عبد الصبور، صالح. ١٩٧٣م. الديوان. طبع ١. بيروت: دار العودة.

كيرزويل، اديث. ١٩٨٥م. عصر البنيوية. ترجمة جابر عصفور. بدون مكان.

المقالات

واقف زاده، شمسى. بهار ١٣٨٧. «تأثير فرهنگ و ادب پارسی بر شعر محمدمهدي الجواهرى».

فصلنامه مطالعات ادبيات تطبيقى. دانشگاه آزاد اسلامى واحد جيرفت. دوره ٢، شماره ٥، صص ١٥٣-١٦٦.